مقدمة الطبعة الجديدة والمنقحة

من سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله الواحد المعبود ، قيوم السموات والأرض ، الذي هدانا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم ، وأصلي على خيرته من خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ ، وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار ، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد ابتدأت الكتابة في سلسلة (العقيدة في ضوء الكتاب والسنة) منذ خمس عشرة سنة تقريباً ، ولم تكتمل الكتابة فيها إلا منذ سنوات، وقدر الله لهذه السلسلة أن تنتشر في بقاع الأرض ، وأقبل على دراستها والانتفاع بها طلبة العلم في مختلف الأقطار ، وكل هذا من فضل الله وحده ، فهو الذي هداني إلى تدوينها وتأليفها ، وهو الذي أنعم عليَّ بإتمامها ، وهو الذي جعل لها القبول عند عباده ، فله الحمد والمنّة والثناء الحسن وحده ، وأسأله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها عند لقياه .

ومنذ أن أكملت تدوينها وأنا أطمع في أن أعيد النظر في أجزاء هذه السلسلة ، خاصة الأجزاء الأولى منها ، ولكن كان يحول دون تحقيق

هذه الأمنية مشاغل وأعمال مع اعتلال في الصحة . وقد وجدت في الأشهر الماضية فسحة من الوقت اغتنمتها لإعادة النظر فيما دونته ، فجاءت هذه الطبعة المزيدة والمنقحة للأجزاء الثلاثة الأولى منها ، ولعلي أستطيع أن أتمَّ مراجعة وتنقيح بقية أجزائها في مقبل الأيام بحول الله وقوته.

لم يحصل تغيير في مباحث وموضوعات الأجزاء المنقحة ، ولكنني بذلت جهداً في توثيق النصوص وعزوها وضبطها ، كما أجريت بعض التقديم والتأخير في المباحث ، وهناك بعض الزيادات في بعض الموضوعات اقتضى المقام بسط القول فيها أو تدعيمها بالأدلة ، كما اختصرت أو حذفت بعض المباحث ، وهذا في مواضع قليلة .

والتغيير والتبديل والإصلاح فيما يدونه الإنسان طبيعة البشر ، فقد أبى الله أن يكون الكمال لغير كتابه .

والحمد لله رب العالمين .

عمر سليمان عبد الله الأشقر
كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية
١٩ من رجب ١٤١٤ هـ
٣١ من كانون ثاني (يناير) ١٩٩٤م

افتتاحية الطبعة الأولى

إن الحمدلله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يَهْدِهِ الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد:

فهذا مؤلف في العقيدة الإسلامية ، أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله لي ذخراً في يوم لقياه إنّه سميع مجيب .

وهذا المؤلف عنوانه ينبيك عنه ، فهو مؤلف في العقيدة الإسلامية يرجع بها إلى مصدريها الأصليين: كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وهذان المصدران هما اللذان بنيا عقيدة الرعيل الأول من هذه الأمة .

ولا أظن أن أحداً يخالف في أنَّ عقيدة أولئك الرجال كانت هي العقيدة الصافية صفاء ماء البحيرة حال سكون الرياح ، القوية قوة الجبال الرواسي ، المتينة متانة العروة الوثقى ، وقد غيّر الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنساني ، فهل نلام إذا عدنا بالعقيدة إلى منابعها، تلك المنابع التي نهل منها الأبرار الأخيار من سلفنا الصالح ؟ !

ودعوى الرجوع إلى الكتاب والسنة يدّعيها أقوام كثيرون بألسنتهم وخطبهم ومقالاتهم ، ولكنَّهم يخالفونها في مجال الاحتجاج والاستدلال وفي مجال العمل والاهتداء .

فنراهم يقدمون آراء الرجال على النصوص القرآنية والحديثية ، ونراهم يهتدون بغير هدى الإسلام في السلوك والمعاملة. . . ؛ ولذا أطلت النفس في

المقدمة مؤكداً على الرجوع إلى هذين المصدرين: الكتاب وصحيح السنة في العقيدة والشريعة، وذكرت شُبه بعض المعرضين عن السنة.

وفي المقدمة مباحث جمة غير هذه المسألة كتعريف العقيدة ، وبيان موقعها من الشريعة والإيمان ، وحكم منكرها أو منكر أصلٍ من أصولها، واستطردت قليلاً لبيان شبهة الطائفة القديمة الحديثة التي تكفّر الناس بمجرد الذنوب .

ولم أنس أن أبين في المقدمة المنهج الإيماني القرآني الذي جاء به الإسلام، وكيف أنه يخالف المنهج الفلسفي الكلامي الذي جرّ على الأمة بلاء عظيماً ، أرجو أن أكون قد وفقت في تحديد الفرق بين المنهجين في المنابع والمصادر ، وفي المنهج والسبيل ، وفي طريقة الاستدلال ، وفي الجنى والعطاء . . .

ومن خلال ذلك البيان تلمح تفرد المنهج القرآني وخصائصه .

وفي مبحث الإيمان بالله تجد الأدلة التي تدل على وجود الله ، ومناقشة شبه الملحدين ، والرد على القائلين إن الكون خلق مصادفة ، أو هو من صنع الطبيعة .

وبعد ذلك أتينا على السبيلين اللذين يعرفاننا بربنا وهما آيات الله المنظورة، وآياته المسطورة ، وقد استرشدنا في ذلك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ومباحث هذه المسألة هي صلب الكتاب ولبّه .

ولما كانت هذه المسألة في غاية الأهمية ، وهي السبب الأعظم في فُرقة الأمة وجدت أنه لا مناص من ذكر الأسس التي تفهم في ضوئها النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته ، والقواعد المهمة التي توضح ذلك ، وتردُّ على الذين أخطؤوا السبيل الإيماني القرآني .

وفي الختام تعرضت لتوحيد الله: مفهومه ، وكيفية تحقيقه ، وعنوانه (لا إله إلا الله) وبينت معناها وشروطها ، كما بينت ما يناقض التوحيد وينافيه وهو (الشرك) .

ثم تعرضت لشيء من تاريخ العقيدة مبيناً بطلان نظرية تطور العقيدة.

وقد استعنت بما وقع تحت يديّ من مؤلفات قديمة وحديثة ، وقد ذكرت طرفاً منها في الخاتمة ، إلا أن اختياري من هذه المؤلفات كان محكوماً بالمنهج الذي يعلن عنه عنوان الكتاب .

قد يرضي هذا الكتاب فريقاً من الناس ، وقد يُسخط فريقاً آخر ، ويعلم الله أن رضوان ربي كان نصب عيني وأنا أسطر مباحثه ، وليس معنى ذلك أن ما فيه صوابٌ كله . فالقلم قد ينبو ، والعقل قد يشت ، والفكر قد يحار ، وليس من معصوم إلا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما دام في العمر بقية فأنا راجع عن كل خطأ وقعت فيه مخالفاً لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ ، فإن أخذ الله وديعته قبل أن أعلن ذلك فقولي قول الإمام الشافعي رحمه الله: « إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وإذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ـ ﷺ ـ فاضربوا بقولي عرض الحائط » .

وستصدر أجزاء أخرى تحت هذا العنوان تجلي بقية أصول الاعتقاد على النسق نفسه إن شاء الله ، أسأله تعالى السداد في القول والعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

د. عمر سليمان الأشقر

الكويت ١٨/ من رجب ١٣٩٨هـ .

٢٤/ من يونيو ١٩٧٨ م .

obeikandl.com

المقدمة

المبحث الأول

العقيدة تعريف وبيان

المطلب الأول: العقيدة لغة واصطلاحاً

تتردد كلمة العقيدة على ألسنة الناس وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيراً، فنراهم يقولون: « أنا أعتقد كذا ، وفلان عقيدته حسنة ، والعقيدة الإسلامية السبب الأقوى الذي أدى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كلّ زمان ومكان ، والحرب بيننا وبين اليهود حرب عقائدية في حقيقتها. . . » .

فماذا يريد الناس من كلمة (عقيدة) ؟ وما معنى هذه الكلمة في اللغة؟ وما مفهومها في الشرع ؟

العقائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس ، وتطمئن إليها القلوب ، وتكون يقيناً عند أصحابها ، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك [1].

و« عَقْد الحبل » شدُّ بعضه ببعض نقيض حله، ومادة « عقد » في اللغة مدارها على اللزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ ،[2] وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه ، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون

---

(١) رسالة العقائد ، للشيخ حسن البنا ، انظر مجموع الرسائل: ٤٢٩ ، ومع أن العلماء المسلمين قديماً وحديثاً عنونوا لمباحث هذا العلم: بالعقائد فإنّ كلمة عقيدة لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ .

(٢) سورة المائدة: ٨٩ .

قصد .

و«العقود»: أوثق العهود، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[1]، وتقول العرب: «اعتقد الشيء: صلب واشتدّ»[2].

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة ، إذ الإسلام عقيدة وشريعة ، والشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات.

المطلب الثاني: العقائد علمية قلبية

والعقيدة ليست أموراً عملية ، بل أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه ، لأنّ الله أخبره بها بطريق كتابه ، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ .

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[3]، وحدّدها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله: (الإيمانُ: أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، ومَلائِكَتِهِ وكتابِهِ ، ولقائه ،ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر)[4].

إذن العقيدة في الإسلام: هي المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله ، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله .

---

(١) سورة المائدة: ١ .

(٢) لسان العرب: مادة عقد: ٢/ ٨٣٦ .

(٣) سورة البقرة: ٢٨٥ .

(٤) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ١١٤ ، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩، ورقمه: ٥ ، واللفظ لمسلم .

المطلب الثالث: العقيدة يقين لا تقبل الشك

وحتى تصبح هذه الأصول عقيدة لا بد أن نصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه ، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة ، يقول صاحب المعجم الوسيط: « العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده»[1] ، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[2]، وقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3]، وقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[4]، وذم المشركين المرتابين: ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[5].

المطلب الرابع: المعتقدات غيب غير منظور

ويلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية ، ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[6] .

فالله غيب ، وكذلك الملائكة واليوم الآخر ، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنّها تشاهد وتنظر، ولكنّ المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله ، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله ، وأن الكتب منزلة من عند الله ، وهذا أمر غيبي .

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٤ .
(٢) سورة الحجرات: ١٥ .
(٣) سورة البقرة: ١، ٢ .
(٤) سورة آل عمران: ٩.
(٥) سورة التوبة: ٤٥.
(٦) سورة البقرة: ٣.

المطلب الخامس: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة

العقيدة ليست مختصة بالإسلام ، بل كل ديانة أو مذهب لا بدَّ لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم ، وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات ، والعقائد منذ بدء الخليقة وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان:

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة ، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل الكرام ، وهي عقيدة واحدة ، لأنها منزلة من العليم الخبير ، ولا يتصور أن تختلف من رسول إلى رسول ومن زمان إلى زمان .

والقسم الثاني: يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددها ، وفسادها ناشئ من كونها نتاج أفكار البشر ، ومن وضع عقلائهم ومفكريهم ، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن ، فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وتقاليد وأفكار .

وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها ، وتغييرها وتبديلها ، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر ، فإنهما حُرِّفتا منذ عهد بعيد ، ففسادهما كان من هذا التحريف ، وإن كانت كل واحدة منهما عقيدة سليمة في الأصل .

أين العقيدة الصحيحة اليوم ؟

العقيدة الصحيحة اليوم لا توجد إلا في الإسلام ، لأنَّه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] والعقائد في غير الإسلام ، وإن كان في بعضها نتف من الحق ، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه .

فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فإنه لن يجدها في اليهودية ، ولا في النصرانية ، ولا في كلام الفلاسفة . . . ، وإنما يجدها في الإسلام في أصليه: الكتاب والسنة ، نديَّة طريَّة صافية مشرقة ، تقنع العقل بالحجة

---

(١) سورة الحجر: ٩.

والبرهان، وتملأ القلب إيماناً ويقيناً ونوراً وحياة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[1].

المطلب السادس: أهمية العقيدة الإسلامية وضرورتها

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ضرورة الماء والهواء ؛ إذ هو بدون هذه العقيدة ضائع تائه يفقد ذاته ووجوده ، العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تجيب على التساؤلات التي شغلت ، ولا تزال تشغل الفكر الإنساني ، بل تحيّره: من أين جئت ؟ ومن أين جاء هذا الكون ؟ من الموجد ؟ وما صفاته ؟ وما أسماؤه ؟ ولماذا أوجدنا وأوجد الكون ؟ وما دورنا في هذا الكون ؟ وما علاقتنا بالخالق الذي خلقنا ؟ وهل هناك عوالم غير منظورة وراء هذا العالم المشهود ؟ وهل هناك مخلوقات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان ؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها ؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب ؟

لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم ـ تجيب على هذه الأسئلة إجابة صادقة مقنعة، وكل من لم يعرف هذه العقيدة، أو لم يعتنقها، فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس [2] الذي لا يدري شيئاً:

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟

لست أدري

---

(١) سورة الشورى: ٥٢ .

(٢) هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان « الطلاسم » من ديوانه (الجداول) ص: ١٠٦.

أجديد أم قديـــم أنا في هذا الوجـود ؟
هل أنا حرّ طليق أم أسـير في قـيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟
أتــمــــنى أننـــي أدري ولكــــنّي

لست أدري

وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هـل أنـا أصعــد أم أهـبط فيه وأغور ؟
أأنا السـائر في الدرب أم الدرب تسير ؟
أم كلانا واقــف والــدهر يجري ؟ !

لست أدري

ليت شعري وأنا فـي عالـم الغيب الأمين
أتراني كـنـت أدري أنــني فيـه دفـــين
وبأنـــي سـوف أبـدو وبـأني سـاكـون
أم تــرانـــي كـنـت لا أدرك شـيـئاً ؟

لست أدري

أتراني قبلمـــــا أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهذا الـلغز حلٌّ ؟ أم سيبـــقى أبدياً
لست أدري . . . ولمـاذا لســت أدري ؟

لست أدري

أي حـيـرة هذه ! وأي قلق تجلبـه هذه المجاهيـل للنفس الإنسـانيـة ؟! ألا يستـحق أبناء هذا القرن الذين فـقدوا المعرفـة بالحقائق الكـبرى التي لا تستـقيم

حياتهم إلا بها هذه الهموم التي تملأ النفس وتسبب الأوجاع والعقد النفسية؟!

وأين هؤلاء من المسلم الذي يدري ، ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق ، فإذا به يجد برد اليقين ، وهدوء البال ، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها ، ويدري غايتها .

واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير:

إن يكُ الموت قصاصاً ! أي ذنب للطهارة ؟
وإن كان ثواباً ، أي فضل للدعارة ؟
وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة
فلم الأسماء إثم وصلاح ؟

لست أدري

إن يك الموت رقاداً بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل ؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل ؟
ومتى ينكشف الستر فيدري ؟

لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالا وابتداء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما ؟
ولماذا تجزع الأرواح منه ؟

لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور ؟
فحياة ، فخلود ، أم فناء فدثور ؟

أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور ؟
أصحيح أن بعـــــــض الناس يدري ؟

لست أدري

إن أكن أبعثُ بعـــد الموت جُثماناً وعقلاً
أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعـــث كُلاً
أترى أبعث طفلاً أم تـرى أبعـث كهلاً ؟
ثم هـل أعرف بعـــــد البعث ذاتي ؟

لست أدري

إنه لا يدري إلى أين المصير ، ومصير الإنسان يهمه ويعنيه ، ويريد أن يطمئن على ذاك المصير ، ونحن نرى لوعة الشاعر وأساه ؛ لأنَّه لا يدري إلى أين يصير ؟ وماذا سيصير ؟ إنه الضلال عن الحقيقة ، إنَّه شقاء القلب المثقل المكدود ، الذي أتعبه المسير ، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال، بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته ، وبعضهم يحس ويعاني ، وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية .

« لست أدري » تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة ، وليست هي قولة شاعر فحسب ، « فسقراط » الفيلسوف الذي يُعدُّ من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة: « الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري»[1]، بل إنَّ « اللاأدرية » مذهب فلسفي قديم .

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري من أين جاء ، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود ، وما دوره في هذا الوجود ، يدري ذلك حقاً وصدقاً، وفرق بين من يدري ومن لا يدري ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

---

(١) الدين ، لدراز: ٦٩ .
(٢) سورة الملك: ٢٢ .

المبحث الثاني

علاقة العقيدة بالإيمان والشريعة

المطلب الأول: علاقة العقيدة بالإيمان

امتدح الله في كتابه الإيمان وأهل الإيمان في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]، ووعدهم بالجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

والإيمان الذي أثنى الله على أهله ليس هو العقيدة فحسب، ولكنَّ العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله، فالإيمان: عقيدة تستقرُّ في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنَّة في قلبه، ويُصدِّق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة.

إنَّ العقيدة التي تستكنّ في القلب، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة، لا تستحق أن تسمى عقيدة، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها، ولكنَّهم لا ينصاعون لها، ولا يصوغون حياتهم وفقها، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنّه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه.

وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بها استكباراً وعلواً، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[4].

وقد خاطب موسى فرعون قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

---

(١) سورة المؤمنون: ١.
(٢) سورة البقرة: ٥.
(٣) سورة المؤمنون: ١٠، ١١.
(٤) سورة النمل: ١٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرُ﴾ [1] .

وأهل الكتاب يعرفون أنَّ محمداً مرسل من ربه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [2]، ولكنهم لا يقرّون بذلك.

واسمع إلى قول أبي طالب يخاطب الرسول ﷺ معتذراً لعدم إيمانه:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

إذن ليس الإيمان مجرد معرفة باردة بالله ، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها ، أو يرفض أن ينصاع لحكمها ، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها ، وأعلن عنها بلسانه ، وارتضى المنهج الذي صاغه الله متصلاً بها.

ولذلك قال علماء السلف: « الإيمان: اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان، وعمل بالأركان » [3] .

المطلب الثاني: صلة العقيدة بالشريعة

الإيمان كما ذكرنا له شطران: عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب ، وعمل يظهر على الجوارح ، فإذا فُقِد أحد الركنين ، فإن الإيمان يزول أو يختل ؛ إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جداً .

مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة ، وباسقة بسوقها في السماء ، مزهرة مثمرة مِعْطاءة ، تعطي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة ، وجذورها العقيدة التي تغلغت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل .

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة: ١٤٦ .

(٣) هذا قول عامة السلف ، ومنهم الأئمة الثلاثة أحمد ومالك والشافعي . وخالف الإمام أبو حنيفة فقال: الإيمان: الاعتقاد والنطق ، والعمل من لوازم الإيمان ولا يدخل في مسماه .
وذهب فريق آخر إلى أن الإيمان مجرد التصديق فقط ، ولو لم يكن معه قول ولا عمل ، هذا مذهب الجهمية والأشاعرة . وذهبت الكرامية إلى أنّ الإيمان هو القول فقط . والرد على مذاهبهم يعلم مما أشرنا إليه في الأصل .

ولا شك أنَّ الجذور إذا خلعت أو تعفنت فسدت الشجرة ، ويبست، ولم يبق لها وجود ، وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أمَّا إذا قطعت الساق والفروع ، أو قطع بعض منها فإنَّ الشجرة تضعف وتهزل ، وقد تموت كلياً ، لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها ، وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها ، فإنَّ الإيمان ينقص أو يزول .

المطلب الثالث: العناية بالعمل

ومن هنا يجب الاعتناء بفعل الأعمال التي فرضها الله علينا، أو حبب إلينا القيام بها ، وبترك ما نهى عنه من أعمال ؛ لأنَّ ذلك جزء من الإيمان، فالعمل المتروك ـ وإن كان قليلاً ـ ينقص من الإيمان بذلك المقدار.

ومن هنا يجب أن ينتبه الذين يهوّنون من شأن العمل بسنة الرسول ﷺ والتزامها إلى خطورة موقفهم ، وقد يتعدى بعض هؤلاء طوره ، فيصف أموراً من السنن أو الدين بأنها قشور ، ونسأل الله أن يعفو عن هؤلاء ، فإنَّ الدين كله لباب لا قشور فيه ، وإن تفاوتت أمور الدين في الأهمية .

ولا يفهم من قولنا أننا لا نُعنى بالأولويات في العلم والعمل والدعوة إلى الله ، فهذا أمر ينبغي أن يكون مقرراً ومعلوماً ، ولكن الذي ننكره هو ترك الجزئيات ، ولوم الذين يلزمون أنفسهم بالصغير والكبير من أمر الإسلام وسنة المصطفى ﷺ .

وكم يؤثر في نفسي مشهد عمر عندما طُعِن ، ودخل عليه شاب ، وقال لعمر قولاً حسناً، فلما أدبر الشاب ليخرج ، إذا إزاره يمس الأرض ، فدعاه عمر وقال له: « يا ابن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنّه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك » [1] ، ولم يمنعه الموت الذي نزل به من أن يرشد ذلك الرجل إلى أمر يعدّه كثير من الناس اليوم من القشور ، التي لا يجوز أن يُعْنى بها .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٧/ ٦٠ ، ورقم الحديث: ٣٧٠٠ .

المبحث الثالث

الإيمان والكفر

المطلب الأول: حكم انكار العقيدة

كل من أنكر العقيدة إنكاراً كلياً كالشيوعيين الذين ينكرون وجود الله، ويكذبون الرسل، والكتب، ولا يؤمنون بالمصير والجزاء، أو أنكر جزءاً من العقيدة، فإنّه كافر غير مسلم، ويجب أن يُعْلم أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التجزئة أبداً؛ لأنها وحدة مترابطة أشدّ الترابط.

فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والإيمان بالكتب يتضمن بقية أصول الإيمان، والإيمان بالرسول ﷺ يعني تصديقه فيما أخبر ...، لذا فقد عدَّ الله من آمن بأصل وكفر بآخر كافراً حقاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[1]. والتكذيب بجزئية من جزئيات الأصول الاعتقادية مما ثبت في الكتاب أو السنة ثبوتاً قاطعاً يُعدّ كفراً، كإنكار رسول من الرسل أو ملك من الملائكة.

المطلب الثاني: الأعمال والأقوال التي تعد كفراً

ليس الكفر هو إنكار الأصول الاعتقادية فحسب، بل هناك أعمال فعلها كفر، ويمكن تحديدها بعبارة واحدة: (عبادة غير الله) فالعبادة حقُّ الله وحده، وصرفها لغير الله شرك، كالصلاة لغير الله، والذبح لغير الله، ودعاء غير الله ...

---

(١) سورة النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

وقد يكفر المرء باللفظ كالذي يسب الخالق (جلَّ وعلا) أو الإسلام أو الرسول أو يستهزئ بالإسلام ، أو يفضِّل على الإسلام المبادئ الضالة كالشيوعية أو البوذية ، أو الأديان المحرّفة كاليهودية والنصرانية ، أو يتهم الإسلام بالنقص والقصور ، والتأخر والرجعية .

المطلب الثالث : الموقف من الكفار

يجب أن يعادي المسلم الكفار ، فيكرههم لما تلبسوا به من كفر ، كما يكره كفرهم ، وعليه أن يحارب هذا الباطل وأهله بالقول والبيان ، بأن يدعوهم إلى الحقِّ ، ويشرح لهم ما هم فيه من ضلال ، ويعرض لهم الحقَّ عرضاً قوياً نقياً ، فنحن وإن كنَّا نبغض الكافرين ، إلا أنَّنا نحبُّ لهم الهداية، ونرجوها لهم .

وللكفار أحكام بينتها كتب الفقه منها: أننا لا نزوجهم المسلمات ، ولا نتزوج من نسائهم إلا الكتابية ، ولا نغسل موتاهم ، ولا نصلي عليهم...

المطلب الرابع : الكافر عند الله

الذي بلغته الدعوة الإسلامية ورفضها عن علم كافر مخلد في نار جهنم ، لا حجة له يوم القيامة .

أمَّا الذين لم يبلغهم الإسلام لسبب من الأسباب كأن بعدت ديارهم ، أو فقدوا السمع والبصر ، أو بلغهم الإسلام وهم كبار لا يعقلون ، فهؤلاء لا يعذّبون في يوم القيامة حتى يختبروا ويمتحنوا؛ لأنَّ الحجة لم تقم عليهم، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] .

والدليل على أنهَّم يمتحنون الحديث الذي رواه الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: (أَرْبَعَةٌ يَحْتَجونَ يَوْمَ القِيَامةِ: رَجُلٌ أصَمُّ لا يَسْمَعُ شَيْئاً ، وَرَجُلٌ أحْمَقُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي الفَتْرةِ (لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةُ رَسُولٍ). فَأمَّا الأصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما

---

(١) سورة الإسراء: ١٥ .

الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أعقلُ شيئاً ، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني مِن رسول . فيأخذ الله مواثيقه ليطيعنه ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها ، لكانت عليهم برداً وسلاماً)[1] .

المطلب الخامس: ترك الواجبات وفعل المحرمات

١ـ موقف السلف من مرتكب الكبيرة

لا شك أنَّ الذي يترك ما ألزمه الله به من الطاعات كالزكاة والصوم والحج وبرِّ الوالدين ، أو يفعل المحرمات كالزنا والربا وأكل مال اليتيم، قد شوَّه وجه الإيمان ، وتناقص إيمانه بمقدار الطاعات التي ترك ، وبمقدار الذنوب التي فعل ، ولكنْ هل يكفر بمجرد هذا الترك للواجبات، والفعل للمحرمات ، إذا لم يكن جاحداً للأول ، ولا مستحلاً للثاني ؟

إن النصوص التي بين أيدينا تهدينا إلى أنَّ المسلم لا يكفر بفعله للذنوب ، ولا بتركه للواجبات ، بل ينقص ذلك من إيمانه ، ويكون أمره إلى الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذَّبه . ومن النصوص الصريحة في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2]، فالذي لا يقبل الغفران: الشرك ، أما ما دون الشرك فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه .

وقد جاءت أحاديث توضح مدلول الآية ففي الحديث القدسي: (ابن آدَمَ لوْ أتيتني بقرابِ[3] الأرضِ خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة)[4].

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وصححه البيهقي . راجع ابن كثير: عند تفسيره آية رقم: ١٥، من سورة الإسراء .

(٢) سورة النساء: ٤٨ .

(٣) أي بما يقارب ملأها.

(٤) رواه الترمذي في سننه: ٤٩/٤ ورقمه: ٣٥٤٠ ، وقال فيه: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا

وفي حديث قدسي آخر: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة ، لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة) [1] .

وعن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) [2] .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) [3] .

وفي حديث الشفاعة أن الله يقول: (وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله) [4] .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يدخل أهل الجنة الجنّة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمان) [5] .

وقال أبو سفيان: « جاورت جابر بن عبدالله بمكة ستة أشهر ، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافراً ؟ قال: معاذ الله ! قال: فهل تسمونه مشركاً ؟ قال: لا » [6] .

هذه النصوص جعلت العلماء الأفذاذ من سلف الأمة يقولون في مرتكب الذنوب وتارك الواجبات: « هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ». فهم أثبتوا له إيماناً ، ولكنّه ليس الإيمان المطلق الذي يستحقه من فعل الطاعات ، وانتهى عن المعاصي ، بل إيمان مقيد بفسقه بسبب الذنب الكبير الذي ارتكبه .

من هذا الوجه » . وانظر صحيح سنن الترمذي للألباني: ٣/ ١٧٥، ورقمه: ٢٨٠٥ .

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٨، ورقمه: ٢٦٨٧ .

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٥١٩ ، ورقمه: ٤٢٥ .

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٩٤ . ورقمه: ٩٤ .

(٤) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٧٤ .

(٥) صحيح البخاري: ١/ ٧٢ ، ورقمه: ٢٢.

(٦) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان له بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص ٩٨، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم . وأبو سفيان راوي الحديث تابعي .

٢ـ الخوارج الذين يكفرون بالذنوب

في مقابل هؤلاء اتجهت طائفة أخرى ترمي الناس بالكفر إذا قصَّروا في واجب ، أو فعلوا محرَّماً ، ولا زلنا نرى كثيراً من النَّاس يسارعون إلى التكفير بمثل ذلك ، وأول من تبنى هذا القول (الخوارج) ، وهم طائفة خرجوا من جيش علي بن أبي طالب بعد أن أخفق المحكمان: أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص في حسم الخلاف الناشب بين المسلمين بقيادة علي ومعاوية .

زعم الخوارج أن تحكيم الرجال خطأ شرعاً ، وعدّوه كفراً ، وكفروا جميع المسلمين الذين رضوا عن ذلك ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، ثم آمنوا من جديد ، وطالبوا علياً بالإقرار على نفسه بالكفر كشرط لعودتهم إلى صفوف جيشه ، وناقشهم علي ، وأرسل إليهم حبْر الأمة عبدالله بن عباس، فأقام عليهم الحجة ، ونقض مذهبهم ، وعاد منهم بضعة ألوف ، وأصر على ذلك القول ألفان حاربهم علي وقضى عليهم، إلا أن مذهبهم انتشر ، وتبناه من بعدهم أناس كثيرون ، ولا تزال فكرة التكفير تثور بين فترة وأخرى، وقد ثارت من جديد في أيامنا هذه.

أدلة الخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة

والخوارج [1] يزعمون أنَّ مرتكب الكبيرة كافر خارج من الإسلام ، حلال دمه وماله ، ويقولون: هو خالد في النار ، وهم يحتجون على ذلك بأدلة ظنوها مثبتة لما ذهبوا إليه ، منها:

١ـ قالوا: أنتم توافقوننا على أنَّ الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، لأنَّ الإيمان: اعتقاد ، وقول ، وعمل ، وإذا زال جزء من الإيمان كالعمل زال الإيمان كله .

---

(١) هناك فرقة أخرى وهم (المعتزلة) أتباع واصل بن عطاء ، قالوا: إنّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، وليس كافراً ، بل هو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان ، أمّا في الآخرة فيحكمون عليه بالخلود في النار .

٢- واحتجوا بأنَّ الله سمَّى بعض الذنوب فسقاً كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[١]، فأطلق لفظ الفاسق هنا على الكاذب، وهذا ظاهر من التأمل في سياق الآيات.

وقال ﷺ: (سَبابُ المؤمن فسوق)[٢].

وقالوا: سمى الله بعض الذنوب ظلماً كأكل مال اليتيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[٣] وسمى من يُخرج المرأة المتوفى عنها من بيت الزوجية في مدة محدودة ظالماً؛ لأنَّه متعدّ لحدود الله، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٤].

قالوا: هذه الذنوب فسق وظلم، والفاسقون والظالمون كافرون بنصّ القرآن: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥] ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٦].

وقالوا: وردت النصوص بنفي الإيمان عن الذي ارتكب ذنباً، فمن ذلك ما رواه مسلم أن النبيَّ ﷺ قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[٧]، وقوله: (لا يبغض الأنصار أحدٌ يؤمن بالله ورسوله)[٨]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا)[٩].

---

(١) سورة الحجرات: ٦.
(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه ٦٤.
(٣) سورة النساء: ١٠.
(٤) سورة الطلاق: ١.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٤.
(٦) سورة النور: ٥٥.
(٧) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٧٦، ورقمه: ٥٧.
(٨) صحيح مسلم: ١/ ٨٦.
(٩) صحيح مسلم: ١/ ٧٤، ورقمه: ٥٤.

٣- وقالوا: تبرأ الرسول ﷺ ممن فعل بعض الذنوب، كقوله ﷺ: (من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا)[١]، وفي الحديث الآخر (من غشَّ فليس مني)[٢] ، وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن) قيل: مَنْ يا رسول الله ؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٣] .

٤- وقالوا: جاء تسمية بعض الذنوب كفراً كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

وقال الرسول ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[٥].

وقال: (إذا كفَّر الرجل أخاه فقدْ باء بها أحَدُهُما)[٦].

الرد على ما استدل الخوارج به

هذه هي الحجج التي احتجوا بها على تكفير مرتكب الذنوب والمعاصي، وسنحاول أن نبين موطن الخطأ في هذه الحجج:

١- أما استدلالهم بأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فلا ننكر عليهم ذلك ، ولكنّ خطأهم أنّهم عدّوها شرطاً في الإيمان ، والصحيح أنّها ليست كذلك ، فزوالها ينافي كمال الإيمان الواجب ، أي إذا زالت زال من الإيمان جزء ، وبقي ناقصاً ، ومثل ذلك مثل الإنسان تقطع يده أو رجله أو تقلع عينه ، أو أذنه ، ويبقى مع ذلك إنساناً تتردد فيه الحياة، فإذا قطع وسطه أو رأسه أو قلع قلبه كان كمن زال الإيمان منه، فزوال اليد أو الرجل أو العين

---

(١) صحيح مسلم: ٩٩/١ ، ورقمه: ١٠١ .
(٢) صحيح مسلم: ١٠١/١ ، ورقمه: ١٠٢ .
(٣) مشكاة المصابيح: ٦٠٧/٢ ، ورقمه: ٤٩٦٢ .
(٤) سورة آل عمران: ٩٧ .
(٥) رواه مسلم: ٨٢/١ ، ورقمه: ٦٥ .
(٦) صحيح مسلم: ٧٩/١ ، ورقمه: ٧٩ .

تشبه زوال بعض الأعمال الواجبة أو فعل الأمور المحرمة ، وزوال الرأس أو القلب يشبه زوال العقيدة .

٢ـ أمّا ما احتجوا به من أنّ الفسق والظلم كفر فهذا فهم خاطئ ، إذ معنى الفسق الخروج عن طاعة الله ، والخروج عن طاعة الله ليس على حد سواء ، فقد يكون خروج كفر ، وقد يكون خروجاً ليس بكفر ، فمنكر الملائكة خارج عن طاعة الله خروج كفر ، وشارب الخمر خارج عن طاعة الله خروج معصية لا كفر .

وكذلك الظلم يتفاوت في نفسه ، فقد يكون الظلم شديداً بالغاً درجة الكفر ، وقد يكون أدنى من ذلك .

ويمكن أن نتصور ذلك إذا رسمنا دائرة كبيرة في وسطها دويرة صغيرة، الدائرة الكبرى تمثل الظلم والفسق ، والصغرى تمثل الكفر ، فيكون الكفر داخلاً في الظلم والفسق ، لأنهما أعمّ من الكفر ، بينما بعض الظلم والفسق ليس بكفر

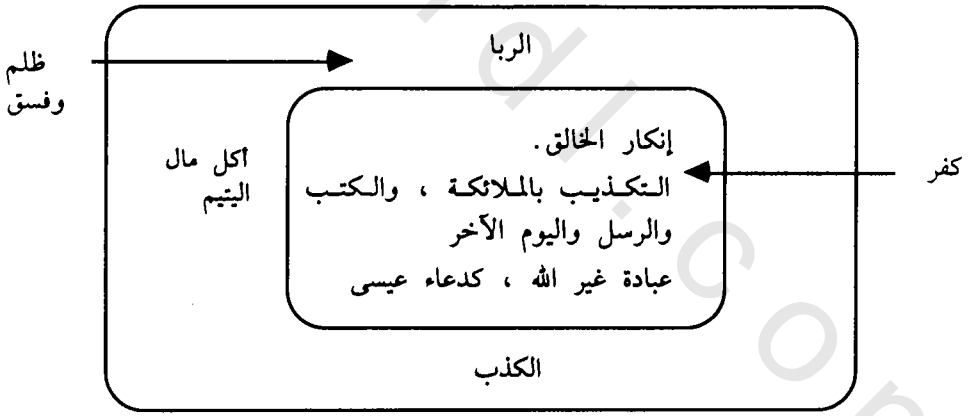

ومما يدل على أن الفسق قد لا يكون كفراً قوله ﷺ: (سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر) [1] ، فقد فرق الرسول ﷺ بينهما ، وإن كان المراد بالكفر في الحديث الكفر الذي لا يخرج من الملة .

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٨٠ ، ورقمه: ٦٤ .

أما النصوص التي احتجوا بها وقالوا: إنها تنفي الإيمان بالذنوب ، أو فيها براءة الرسول ﷺ ممن فعل ذنباً ، أو نصّت على كفر من فعل ذنباً ، فليس المراد منها أنّ الإيمان يزول بالذنوب والمعاصي ، وأنّ الذنوب والمعاصي توجب الكفر ، ولكنّها تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه ، الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم [4] ، بعد أن ساق هذه الآيات: «فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائع الإسلام المفروضة على أهله ، ونفت عنه المعاصي كلها ، ثم فسرته السنة بالأحاديث التي فيها خلال الإيمان ، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها ، قيل ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الإمارات التي يعرف بها أنه الإيمان فنفت عنهم حينئذ حقيقته ، ولم يزل عنهم اسمه».

ثم ناقش شبهة من يقول: كيف يجوز أن يقال ليس بمؤمن ، واسم الإيمان غير زائل عنه ؟ مبيّناً أنّ هذا جرى على طريقة العرب في نفي العمل الذي

---

(١) سورة التوبة: ١١١، ١١٢ .
(٢) سورة المؤمنون: ١ ـ ٥ .
(٣) سورة الأنفال: ٢ـ٣ .
(٤) هذه النصوص من كلام أبي عبيد منقولة من كتابه (الإيمان) ضمن رسائل أربع حققها الشيخ ناصر الدين الألباني ص: ٩٠ ـ ٩٦ .

لم يأت به صاحبه على وجهه ، والقرآن نزل بكلام العرب وأساليبها «وكلام العرب المستفيض عندنا ، غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته ، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس محكماً لعمله: ما صنعت شيئاً ، ولا عملت شيئاً ، إنما وقع معناها هنا على نفي التجويد ، لا على الصنعة في نفسها ، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان »

وبيّن أنَّ العرب تتكلم بأشدَّ من هذا « وذلك كرجل يعق أباه ويبلغ منه الأذى ، فيقال: ما هو بولد ، وهم يعلمون أنّه ابن صلبه . ثم يقال مثله في الأخ والزوجة والمملوك ، وإنّما مذهبهم في هذا المزايلة من الأعمال الواجبة عليهم من الطاعة والبر ، وأما النكاح والرقُّ والأنساب ، فعلى ما كانت عليه إمكانها وأسماؤها » .

ثم بين أن هذه النصوص التي تنفي الإيمان وردت على النسق نفسه ، فقال: « فكذلك هذه الذنوب التي ينفى بها الإيمان ، إنما أحبطت الحقائق منه الشرائع التي هي من صفاته ، فأمّا الأسماء فعلى ما كانت قبل ذلك ، ولا يقال لهم إلا المؤمنون ، وبه الحكم عليهم » .

واستشهد بآية آل عمران التي تخبر أنَّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، ومع ذلك فإنَّه حكم لهم بحكم أهل الكتاب في آيات أخرى ، وأباح لنا أكل ذبائحهم ، ونكاح نسائهم، ثم قال: « فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق مفارقون » .

وأورد حديث المسيء صلاته الذي أخرجه الشيخان ، وفيه يقول الرسول ﷺ: (ارْجع فصلِّ فإنك لم تصل)[1] أكثر من مرة ، مع أنَّه كان في كل مرة يصلي ، فإنه مُصلّ بالاسم ، وغير مصلّ بالحقيقة .

---

(١) رواه البخاري: ٢/ ٢٧٧ . ورقمه: ٧٩٣ ورواه مسلم: ١/ ٢٩٨، ورقمه: ٣٩٧ .

المراد من النصوص التي تبرأ فيها الرسول ﷺ من مقترفي الذنوب:

قرر أبو عبيد: « أنَّ البراءة هنا ليس معناها التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته ، إنما مذهبه عندنا أنَّه ليس من المطيعين لنا ، ولا من المقتدين بنا ، ولا من المحافظين على شرائعنا » .

المراد بالنصوص التي تكفر بالذنوب:

قال أبو عبيد: « وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبها بالمعاصي ، فإنَّ معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه ، إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون ، وقد وجد لهذين النوعين من الدلائل في الكتاب والسنة نحو ما وجدنا في النوعين الأولين » .

وبين أنّ المراد بالذنوب التي سميت كفراً وشركاً« أنها أخلاق المشركين وتسميتهم وسنتهم وألفاظهم وأحكامهم ، ونحو ذلك من أمورهم».

واستشهد على ذلك بقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]، قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة » ، وقال عطاء: « كفر دون كفر » . وأثر ابن عباس قال فيه محقق الكتاب: « أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق طاوس عن ابن عباس ، وصححه هو والذهبي »[2].

فالحكم بغير ما أنزل الله وإنْ سمي كفراً إلا أنه غير ناقل عن ملة الإسلام، والدّين باق على حاله ، وإن خالطه هذا الذنب ، فالمعنى أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله من سنن الكفار ، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾[3].

ثم قال: تأويله عند أهل التفسير أنَّ من حكم بغير ما أنزل الله ـ وهو على ملة الإسلام ـ كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية ، إنما هو أنَّ أهل

---

(١) سورة المائدة: ٤٤.
(٢) كتاب الإيمان ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، منشور ضمن أربع رسائل ، ص: ٩٤ .
(٣) سورة المائدة: ٥٠ .

الجاهلية كذلك كانوا يحكمون ، وهذا كقوله: (ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والأنواء) . حديث صحيح[1] ، وكذلك حديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان) [2] .

قال أبو عبيد: « ليس وجوه هذه الآثار أنَّ راكبها يكون جاهلاً ، ولا كافراً ، ولا منافقاً ، وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده ، ومؤد لفرائضه ، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار المحرمة المنهي عنها في الكتاب والسنة ، ليتحاماها المسلمون ، ويتجنبوها ، فلا يتشبّهون بشيء من أخلاقهم، ولا شرائعهم » .

وأورد حديث: (إذا استعطرت المرأة ثم مرت بقوم يوجد ريحها أنها زانية) [3] ، فهل يكون هذا من الزنى الذي تجب فيه الحدود ؟

ولعل مراد أبي عبيد القاسم بن سلام بقوله: « أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة » هو حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله .

أما الحكم بالقوانين الكافرة ، وتطبيقها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنَّار، ومحاربة وتعذيب كل من نادى بتطبيق الإسلام فهذا ليس من الإسلام في شيء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [4] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ١/٥٨٣ . ورقمه: ٣٠٣٩ ، ولفظه فيه: (ثلاث من فعل أهل الجاهلية، لا يدعهنَّ أهل الإسلام : استسقاء بالكواكب ، وطعن في النسب ، والنياحة على الميت » وعزاه إلى البخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه

(٢) صحيح البخاري: ١/٨٩ ، ورقمه: ٣٣ ، وصحيح مسلم: ١/٧٨ . ورقمه: ٥٩.

(٣) قال محقق كتاب الإيمان: ص: ٩٦ ، حديث صحيح ، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم في « صحاحهم » عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية ، وكل عين زانية) وأخرجه بنحوه أبو داود والترمذي وصححه .

(٤) سورة النساء: ٦٥ .

٣ـ القائلون إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان

جنح الخوارج إلى جانب واحد من النصوص ، تلك النصوص التي تبين أنَّ مرتكب الكبيرة قد شوَّه إيمانه وأنقصه ، ولم يدركوا النصوص الدالة على أن الإيمان لم يزل منه بالكلية ، وفي مقابل هؤلاء فريق [١] آخر زعم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان ، وقرروا « أنه لا يضرُّ مع الإيمان ذنب » وهؤلاء قالوا: الإيمان اعتقاد القلب ، ونطق اللسان ، والأعمال ليست من الإيمان . وقالوا: الإيمان القلبي شيء واحد لا يتفاوت فيه الناس ، واحتجوا بالنصوص التي تدلُّ على أنَّ الذين ارتكبوا الكبائر مؤمنون يدخلون الجنة .

ويردُّ عليهم أنَّه ورد في أكثر من نصّ اعتبار الأعمال من الإيمان كقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)[٢].

ويردُّ قولهم أيضاً نصوص الوعيد كقوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[٣] .

وهذان الفريقان لهما آثار سيئة ، فالأولون المكفرون ييئسون الناس من رحمة الله ، والآخرون يجرئون النَّاس على ارتكاب الذنوب والمعاصي ، وسلف الأمة وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، فهم يثبتون لمرتكب الكبيرة إيماناً مقيداً في الدنيا ، وفي الآخرة أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم .

---

(١) هؤلاء هم الذين يسمون « بالمرجئة »: لأنهم أرجؤوا « أخَّروا » الأعمال عن الإيمان .
(٢) رواه البخاري: ١/ ٥١ ، ورقمه: ٩ . ومسلم: ١/ ٦٣ ، ورقمه: ٣٥ ، واللفظ لمسلم .
(٣) رواه البخاري ومسلم ، وقد سبق تخريجه .

المبحث الرابع

العقيدة والفلسفة وعلم الكلام

المطلب الأول

الفرق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة وعلم الكلام

على الرغم من أنَّ الموضوع الذي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين ، إذ يزعم الفلاسفة أنَّ مباحثهم تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته ، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً وآجلاً ، وهذان هما موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملي ، وهما كذلك موضوع علم الدين [1] ـ أقول على الرغم من ذلك إلا أنّ الاختلاف بين الدِّين والفلسفة اختلاف كبير . فهما يختلفان في المصادر والمنابع ، وفي المنهج والسبيل ، وفي قوة التأثير والسيطرة ، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال ، وفي آثار كل منهما . وسنحاول أن نبين ذلك كله حتى يزول هذا الخلط بين الدين والفلسفة.

١ـ المصادر والمنابع :

الفلسفة في كل صورها « عمل إنساني » يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول ، وقابلية للتغير والتحول ، وتقلب بين الهدى والضلال ، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال .

ولذا فإن أساطين الفلسفة لم يستطيعوا أن يتخلَّصوا من التأثر بالبيئة،

---

(١) الدين ، لدراز: ٥٩ ، ٦٠ .

فكانت تصوراتهم ومعتقداتهم فيها صدى كبير لما يحيط بهم[1].

ولنأخذ على ذلك مثلاً (أفلاطون) فإنّا إذا درسنا نتاجه رأيناه يردد الأساطير التي سادت في عصره، بل إنّه ينشئ الأسطورة، ويضمنها أفكاره ومعتقداته ، بل إن كثيراً من معتقداته وآرائه هي أساطير في ذاتها.

اسمع ما يقوله العقاد في (أفلاطون): « غلبت البيئة الوثنية أفلاطون على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات ، فأدخل في عقيدته أرباباً، وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد »[2].

ثم يعرض العقاد نظرية أفلاطون في الوجود تدليلاً على ما يقول: «فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق ، وطبقة المادة الأولية أو (الهيولي) ، والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من (الهيولي) ، وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي ، وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب ، وبعضها أنصاف أرباب ، وبعضها نفوس بشرية »[3].

والسبب الذي من أجله ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة كما يقول العقاد « إنه أراد أن يعلل بها ما في العالم من شرّ ونقص وألم ، فإنّ العقل المطلق كمال لا يحدُّه الزمان والمكان ، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة ، فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر « والهيولي » العاجز ، فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين »[4].

ومن المعروف أيضاً أن أفلاطون يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح .

هذه هي الفلسفة في مصادرها .

أما العقيدة الإسلامية فهي وحي من الله ، له كلّ ما للإلهيات من ثبات الحقّ الذي لا تبديل لكلماته ، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين

(١) المصدر السابق: ٧٣ .
(٢) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩ .
(٣) كتاب الله ، للعقاد: ١٢٩ .
(٤) المصدر السابق.

يديه ولا من خلفه ، ثم هو فوق ذلك « منحة كريمة » تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب ، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب [1].

٢ـ المنهج والسبيل: [2]

يختلف المنهج الفلسفي عن المنهج الإسلامي في خط سير كلّ منهما بداية ونهاية ، فالفلاسفة كثير منهم يبدؤون بدراسة النفس الإنسانية ، ويجعلونها الأصل الذي يبنون عليه ، ويفرعون عنه ، فتكلموا في إدراكهم للعلم: وأنه تارة يكون بالحسّ ، وتارة بالعقل ، وتارة بهما .

وجعلوا العلوم الحسيَّة ، والبدهية ونحوها: هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها ، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم ،من الأمور الطبعية والحسابية ، والأخلاق ، فجعلوا هذه الثلاثة هي الأصول التي يبنون عليها سائر العلوم ، ولهذا يمثلون ذلك في أصول علم الكلام ، بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم لا يكون بمكانين ، وأن الضدّين ـ كالسواد والبياض ـ لا يجتمعان .

وكثير من هؤلاء لا يجعلون الأخلاق مثل: العدل ، والعفَّة من الأصول، بل من الفروع التي تفتقر إلى الدليل .

وكثير من المصنفين في الفلسفة يبتدئ بالمنطق ، ثم الطبيعي والرياضي، ثم ينتقل إلى العلم الإلهي ، وتجد المصنفين في الكلام يبدؤون بمقدماته في الكلام: في النظر والعلم والدليل ، وهو من جنس المنطق ، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات مُحدثِه ، ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه ، كما يفعله الفيلسوف في أول العلم الإلهي .

وغالبية الفلاسفة يتوسعون في الأمور الطبعية ، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها ، ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود ، وإلى العقول

---

(١) الدين ، لدراز: ٧٣ .

(٢) راجع في هذا الموضوع مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام: ١/٢ ، ٢٥ ، وهذا الذي ذكره وأثبتناه هنا باختصار أصل عظيم يدل على فقه كبير منه رحمه الله .

والنفوس ، ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بدَّ فيه من واجب .

وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق ، وأنَّه لا شريك له ، ويظنون أنَّ هذا هو المراد بـ (لا إله إلا الله) .

هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر ، ولا ينتهي من بعضها ، بل إنَّ الذي يحصِّله منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود ، فيصاب الباحث بالحيرة والشك.

أما المنهج القرآني ، فإنَّه يجعل فاتحة دعوته ودعوة الرسل جميعاً: الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] وكلُّ رسول كان يطالب قومه في أول الأمر بأن يعبدوا الله وحده ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2] يطالبهم بعبادته بالقلب، وعبادته باللسان، وعبادته بالجوارح، وعبادة الله متضمنة لمعرفته وذكره.

وأصل العلم عندهم هو العلم بالله سبحانه ، لا الحس ولا البدهيات، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات ، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع ، والعلم به أصل كل علم وجامعة، وذكره أصل كل ذكر وجامعه ، والعمل له أصل كل عمل وجامعة .

ومن العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي، والبرهان الوثيق، فلا يزال إما في زيادة في العلم والإيمان ، وإما في السلامة عن الجهل والكفران ، فالعلم بالله أعظم سبيل لمعرفة الله ، ومعرفة الحياة والأشياء ، ومعرفة النفس الإنسانية .

يقول ابن أبي حاتم: « عرفنا كل شيء بالله » . وسئل ابن عباس: بم عرفت ربك ؟ قال: « من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس ،

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون: ٢٣ .

ظاعناً [1] في الاعوجاج ، زائغاً [2] عن المنهج ، أعرفه بما عرف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه » .

وقد أخبر الرسول ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن للدعوة إلى الله: أنَّه سيقدم على قوم أهل كتاب وأوصاه أن يكون أول ما يدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا ذلك فيدعوهم إلى الفرائض ، ولم يأمره ﷺ أن يدعوهم أولاً إلى الشك، أو النظر ، أو القصد إلى النظر كما هي طريقة بعض المتكلمين.

ولذا ابتدأ البخاري كتابه بالأصل الذي يقوم عليه العلم والإيمان ألا وهو الوحي، فعقد كتاباً عنونه بـ (بدء نزول الوحي) ، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ أولاً، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي الذي يدل على علمه وحكمته رحمه الله.

والله عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية ، والمنطق والطبعي، بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3]، والحجة لا تقوم على الناس إلا ببعثه الرسل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[4].

وكما أن الدعوة إلى عبادة الله هي نقطة البداية في المنهاج القرآني ، ومعرفة الله هي الأصل الذي تتفرع منه العلوم ، فإن نقطة النهاية أيضاً عبادة الله المتضمنة معرفته وتوحيده. أما مجرد الإقرار بوحدانية الخالق وإفراد الصانع التي هي نهاية مطلوب علماء الكلام ، فإنها ـ على الرغم من أهميتها ـ جزئية في المنهج القرآني لا يكفي مجرد الإقرار بها، ولذا لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ مع إقرارهم بذلك ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) الظعن: السير ، أي أبعد في الاعوجاج .
(٢) زائغاً: مائلاً وحائداً .
(٣) سورة الملك: ٨ ـ ١١.
(٤) سورة الإسراء: ١٥ .

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] . ﴿قُل مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[2].

أما الفلاسفة الذين بحثوا في العقول والنفوس فهم يخبطون في هذا المجال خبطاً لا قرار له ، وحسبك دليلاً على ذلك أن التقدم العلمي الهائل في هذا العصر لم يكشف لنا حقيقة النفس الإنسانية « ولقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها الفلاسفة والعلماء والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان إلا أننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا ، إننا لا نفهم الإنسان ككل ....، إننا نعرفه على أنّه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ! فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة .

وواقع الأمر أنَّ جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة »[3].

إذا كانت هذه هي المعرفة التي بلغتها الأبحاث في القرن العشرين ، فكيف تجعل النفس الإنسانية هي الأصل الذي يتفرع عنه مختلف العلوم، أمَّا المعرفة بما وراء الطبيعة فإن الفلسفة ضلت فيها ضلالاً أبعد وأبين.

٣ـ قوة التأثير[4]:

العقيدة تمتاز بسلطان قوي قاهر على نفوس معتنقيها ، وليس للفلسفة أن تطمح إلى نيل هذه الميزة ، وإلا لجاوزت قدرها ، وتناقضت في نفسها ، والسبب في ذلك أنَّ الفلسفة تبحث عن المعرفة والحقيقة بقدر الطاقة البشرية، ثم تعرض ما تظفر به في جوانب تلك الحقيقة ، والفيلسوف هو أول من

---

(١) سورة لقمان: ٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون: ٨٦ـ ٨٧ .
(٣) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان.
(٤) راجع في هذا المبحث كتاب الدين ، لدراز: ٦٩ ، وما بعدها .

يعرف قصور العقل البشري ، وقصور كل ما هو إنساني عن درجة الكمال، ولذلك كان التسامح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه، فسقراط وهو مَنْ هو بين الفلاسفة يقول: « الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً » .

أما صاحب العقيدة فيرى أنّ عقيدته التي يحملها مستمدة من العالم بسر الوجود الذي أحاط بكل شيء علماً، فهي تمثل الحقيقة بلا غبش .

فهي بطبيعتها ملزمة ، تتقاضى صاحبها الخضوع والتسليم ، ولا تقبل منه في حكمها جدالاً ولا مناقضة ، بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً، فإن فعل ذلك في مسألة ما، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقرَّ فيها على رأي معين يدين به ، فهنالك لا يقبل فيه مساومة، ولا يستطيع منه تحللاً؛ إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة ، حتى لا يبالي بأن يضحي في سبيلها بحياته، ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية أو سياسية أو غيرها.

ويبين الشيخ محمد عبدالله دراز السر في هذه الظاهرة فيقول: « السر في هذه الظاهرة ـ وهي قوة سلطان العقيدة وتميزها بذلك عن الفلسفة ـ يتمثل في الفارق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان ، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة ، والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان . فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش وهو غير محس بآلامهما ، وقد يفهم معنى الحبِّ والشوق ، وليس من أهلهما ، وقد يرى الأثر الفني البارع فيفهم أسراره ، ويقف على دقائق صنعه ، ولكنه لا يتذوقه ، ولا يتملك قلبه الإعجاب به . . .

هذه ضروب من المعرفة والعلم ، يهديها إلينا الحس ، أو الفكر ، أو البديهة ، فتلاحظها النفس ، وكأنها غريبة عنها ، أو تمرُّ بها عابرة ، فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قرارتها ، أو تختزنها وتدخرها ، ولكنها لا تهضمها ولا تتمثلها ، وكل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادئ عند هذه المراحل فليست من الإيمان في قليل ولا كثير .

الإيمان معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير ، وتختلط مادتها بشغاف القلوب ، فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج ، بل تحس النفس ببرد اليقين ، الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب ، فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل في كيانها ، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها ، الإيمان يحول الفكرة قوة دافعة فعَّالة خلاقة ، لا يقف في سبيلها شيء في الكون إلا استهانت به .

هذا هو فصل ما بين الدين والفلسفة ، غاية الفلسفة المعرفة ، وغاية الدِّين الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة ، ومطلب الدين روح وثَّابة وقوة محركة .

ويلاحظ دراز أن الفلسفة تعمل في جانب واحد من جوانب النفس ، بينما الدين يستحوذ على النفس بجملتها ، وأن الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب ، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها ، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة ، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة ، أما الدِّين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقة جملة ، فيعبر بها القشرة السطحية ، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها ، فتعطيها النفس كليتها وتملكها زمامها .

وهنا يستنبط دراز فرقاً دقيقاً بين الفلسفة والدين: فيلاحظ أنَّ غاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي ، وغاية الدِّين عملية ، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ، وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحقِّ الذي تعرفه ، والخير الذي تحدِّده ، أما الدِّين فيعرفنا الحقَّ لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤدِّيه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

وكي يزيد الأمر إيضاحاً قارن بين الآثار العملية الدينية والفلسفية ، وبَيَّنَ دراز أنَّ الدِّين يلفت النظر كي يتعرف الإنسان بخالقه، ويتوجه إليه، ويحبُّه ويُقدِّسه ، على أنَّ غاية الفلسفة مجرد المعرفة التي تربط بين الأسباب والمسببات .

وبين أنَّ العقيدة الدينية تتدفق في الميدان الاجتماعي، فهي تهز صاحبها لتحقيق أهدافها بالنشر والدعوة، بينما الفلسفة لا يعنيها التوسع والانتشار، بل قد يضنُّ بها أصحابها على غيرهم ، فيحتكرونها ، ويستأثرون بها.

٤ـ الأسلوب: [١]

الأسلوب الذي صيغت به العقيدة الإسلامية أسلوب خاص يمتاز بالحيوية والإيقاع ، واللمسة المباشرة والإيحاء ، الإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة ، ولكن توحي بها العبارة ، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا تخاطب الفكر وحده في الكائن البشري.

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر ؛ إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقيقة التي يتصدى لها يستحيل أن تنحصر في منطوق العبارة ـ فضلاً على أنَّ جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه الفكر البشري ـ فإنَّ الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف ، ومن هنا لا يجوز أن تُعرض العقيدة الإسلامية بأسلوب الفلسفة، لأنه يقتلها ويطفئ إشعاعها وإيحاءها ، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية .

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها ، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها ، ومسلك القرآن في بيان العقيدة الإسلامية متسم بالبساطة والوضوح يجعل إدراكها سهلاً ميسراً لكافة مستويات النَّاس على اختلاف مداركهم وفطرهم ، يأخذ كل حسب طاقته من التفكير والاقتناع ، بخلاف تلك الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة الممتلئة بالمصطلحات ، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من النَّاس .

---

(١) راجع خصائص التصور الإسلامي ، لسيد قطب ص: ١٦ .

٥ـ طريقة الاستدلال:

وفي هذا الجانب يتميَّز القرآن في ما جاء به من الأدلة عن الطريقة الفلسفية الكلامية ، ويمكن أن نوضح هذه الفروق في النقاط التالية:

أ ـ استدل القرآن بالآيات المشهودة (الكونية) على وحدانية الخالق ، وكذلك الفلاسفة والمتكلمون ، ولكنَّ طريقة القرآن مخالفة للطريقة الفلسفية الكلامية ، فالقرآن يستدل بالآيات نفسها التي يستلزم العلم بها العلم بصانعها، كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم .

فالعلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان ، فالإنسان يعلم بفطرته أنَّ هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق ، مقهور مربوب ، وهذا لا يحتاج إلى تلك الأقيسة التي أقاموها ، كي نعلم حدوث العالم ، وأن له مُحدثاً .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

ب ـ الأدلة العقلية[2] التي جاء بها القرآن لائقة بجلال الله وكماله ، فلم يستعمل القرآن قياس الشمول وقياس التمثيل الذي تستوي أفراده في حقّ الله تعالى ، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق .

وإنما يستعمل في حقه تعالى قياس الأولى الذي مضمونه أنَّ كلَّ كمال

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) يخطئ كثير من المتكلمين والفلاسفة في ظنّهم أنَّ دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، وأنها لم تتعرض للأدلة العقلية ، فالحقُّ أنَّ القرآن بين من الأدلة التي يحتاج إليها في العلم بالله ووحدانيته ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره . ونهاية ما يذكره المتكلمون جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه ، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها: ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ (سورة الكهف: ٥٤) ، والأمثال المضروبة هي (الأقيسة العقلية) .

وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به ، فالخالق أولى أنْ يتصف به ، لأنَّه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنَّه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به ، لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (١).

وكلُّ نقص ينزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه.

جـ ـ ونلاحظ أيضاً أن الأدلة العقلية القرآنية تدلُّ على الحقِّ بأبلغ عبارة وأوجزها ، أمَّا الأدلة العقلية الكلامية والفلسفية فكثير منها لا ينهض للاستدلال به ، وضعف الدليل الذي يستدلُّ به على الحقِّ يؤدي إلى كثرة الشك والاضطراب والحيرة ، بل قد يؤدي إلى ردِّ الحق ، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل ، فإذا ردَّه ردَّ الحقَّ مع أنَّ الحقَّ قويٌّ في ذاته ، والضعف إنَّما هو في الدليل الموصل إليه ، لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول ، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه في موضع آخر ، بل يكفِّرون بقولٍ ما ، وهم ممن قال به في مكان آخر ، بخلاف أدلة الكتاب والسنة فإنَّ أصحابها مستقرون عليها ، آخذون بها ، لا يتلجلجون ، ولا يضطربون (٢).

د ـ ونلاحظ أنَّ بعض أدلة المتكلمين يلزم منها لوازم باطلة ، إذ يلزم من بعضها ردُّ الحق الثابت في الكتاب والسنة .

فقد ردوا النصوص التي تدلُّ على أنَّ الله في السماء بدعوى أنَّ الله لا يكون في جهة ، لأنَّ كونه في جهة يُعدُّ تحيُّزاً ، مع أنَّ النصوص صريحة في كونه تعالى في السماء ، وخطؤهم أنَّهم ظنوا أنَّ معنى كونه في السماء: أنَّ السماء تحويه ، وأخطؤوا أيضاً عندما طبقوا المقاييس البشرية على الذات الإلهية .

---

(١) سورة النحل: ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية: ٤/ ٥٠ .

٦ـ الجنى والعطاء:

ومن الفُروق أيضاً أن القرآن يعطي إيماناً مفصّلاً كما قال جندب بن عبدالله « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيماناً » .

فالقرآن يصف لنا ربنا ، وأن له وجهاً ويداً وسمعاً وبصراً ، ويعدِّد لنا أسماءه وصفاته: فهو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام، المؤمن، المهيمن ، العزيز الجبار . . . ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته ، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنَّار كأننا نراهما .

أما طريقة المتكلمين فإنَّ غاية ما عندهم إيمان مجمل ، لا يعطي علماً وافياً ، ولا تصوراً واضحاً .

لا لقاء:

لا لقاء بين الدِّين والفلسفة فهما منهجان مختلفان: في البداية والنهاية، والطريقة والأسلوب ، وفي التأثير والعطاء ، وقبل ذلك كلِّه في المنابع والمصادر .

والإسلام لا يحتاج إلى من يكمله، فقد أكمله العليم الخبير: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾[1]، ولا نحتاج إلى أن نوفِّق بينه وبين الفلسفة، ولا بينه وبين اليهودية والنصرانية، ولا بينه وبين الشيوعية والاشتراكية، فالإسلام حق لا باطل فيه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[2] وغيره إمَّا باطل، وإما حق مخلوط بباطل، والإسلام ما جاء لتحكمه أفكار البشر، وإنما جاء ليهيمن على الحياة والأحياء، ويقوِّم المعوجَّ من العقائد والأفكار.

يجب علينا أن نبقي عقيدتنا وشريعتنا متميزة صافية نقية كما يريد ربنا ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[3] وإن خلطها بغيرها يؤدي إلى اللبس الذي عابه الله على أهل الكتاب ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: ٣.
(٢) سورة فصلت: ٤٢.
(٣) سورة البقرة: ٢٥٦ .
(٤) سورة آل عمران: ٧١ .

المطلب الثاني: موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام

قاوم العلماء الاتجاه الداعي إلى خلط مباحث العقيدة بالفلسفة وعلم الكلام، ذلك الخلط الذي أنشأه الذين يعرفون بفلاسفة الإسلام كابن سينا ، وحاربوا الذين تأثروا بهذه الفلسفات .

والعلماء الأعلام قسمان: قسم تنبهوا إلى خطر هذا المسلك منذ الوهلة الأولى ، فقاوموا هذا الاتجاه منذ البداية كالإمام أحمد ، رحمه الله، وكذلك الشافعي الذي يقول: « حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » .

وقسم خاض فيما خاض فيه المتكلمون ، فأضناهم المسير ، ولم ينتبهوا إلا وشمس العمر تميل إلى الغروب ، فتندَّموا ولات ساعة مندم، ولم يبق لهم سوى التأوه والتحسر ، وسؤال الله أن يتجاوز عنهم ، وأن يحذِّروا مَنْ خلفهم من سلوك الطريق الخاطئ الذي ساروا فيه .

من هؤلاء محمد بن عمر الرازي قال في كتابه أقسام اللذات[1]:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا
فكم قد رأينا من رجالٍ ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علا شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

وقال الرازي: « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً » وعاد إلى الطريقة القرآنية ، وضرب مثلاً بمنهج القرآن في الصفات: « ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ

(١) الصواعق المرسلة ، لابن القيم: ص:٧ ، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين ، للرازي: ص٢٣.
(٢) سورة طه: ٥.

الطَّيِّبُ﴾[1].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[3]، ثم قال: « من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي »[4].

وهذا الشهرستاني يضرب على الوتر نفسه، ويقرر أنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث إلا الحيرة والندم حيث يقول:[5]

لعمري لقد طفت المعاهد كلّها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وهذا الجويني - وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام - يقول محذراً من الاشتغال به[6]: « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنَّ الكلام، يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به ».

وقال عند موته متندماً متحسراً: « لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة العجائز».

وأبو حامد الغزالي - رحمه الله - من هؤلاء الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، وألف كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام)، بل حرَّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصة « الحق أن علم الكلام حرام إلا لشخصين ».

وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره.

---

(١) سورة فاطر: ١٠.
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة طه: ١١٠.
(٤) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٧.
(٥) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: ص ٣.
(٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر الفتوى الحموية: ص٧.

وأبو الحسن الأشعري نشأ معتزلياً ، وبقي كذلك أربعين عاماً ، ثم رجع عن ذلك ، وصرَّح بتضليل المعتزلة ، وبالغ في الرد عليهم [1] .

ولقد نشأ فريق بعد ذلك سار على المنهج السليم ، إلا أنَّه استوعب علوم هؤلاء ، وعرف مقاتلهم ، فكان يردُّ عليهم بالمنهج القرآني ، ويحاربهم بسلاحهم أيضاً مبيناً ما فيه من عوار وضعف ، وقائد هذا الفريق وحامل لوائه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

المطلب الثالث: مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة

وقبل أن أنهي الكلام في هذا الموضوع أقول: نحن بحاجة إلى رجال عقيدة لا إلى رجال فلسفة ، نحن نريد أقواماً يعالجون داء هذه الأمة وبلاءها، ولن يفعل ذلك أصحاب الفلسفة والرأي .

وقد عقد الأستاذ أحمد أمين ـ رحمه الله ـ مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة وأثر كل منهما في الحياة فقال:

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده.

إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى في دمك ، وسرى في مخ عظامك ، وتغلغل في أعماق قلبك .

ذو الرأي فيلسوف يقول: إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً ، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم ، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً ، وقد أكون مخطئاً فيه ، وقد أكون مصيباً .

أما ذو العقيدة فجازم بات ، لا شك عنده ولا ظن ، عقيدته هي الحق، لا محالة ، وهي الحق غداً ، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل ، وسمت عن الشكوك والظنون .

ذو الرأي فاتر أو بارد ، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى ، فلا بأس ، فقد احترز من قبل بأنَّ رأيه صواب يحتمل

---

(١) انظر كتابنا: معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه .

الخطأ ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب ، ذو العقيدة حار متحمس ، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته .

ذو الرأي سهل أن يتحول وأن يتحوَّر ، هو عند الدليل ، أو عند المصلحة تظهر في شكل دليل ، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله (لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في شمالي ، على أن أدَعَ هذا الذي جئتُ به ما تركته) [1] .

الرأي جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقي عليه العقيدة أشعتها ، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض ، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه .

والرأي سديم يتكون ، والعقيدة نجم يتألق .

الرأي يخلق المصاعب ، ويضاعف العقبات ، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات ، ويبعث على التردد ، والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمراد الروح [2] .

---

(١) هذا حديث ضعيف رواه الطبري في تاريخه: ٢/٣٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/١٨٧، من طريق ابن إسحاق ، وسنده منقطع ، انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٣٠ .

(٢) كتاب فيض الخاطر ، لأحمد أمين نقلاً عن كتاب (الإيمان والحياة ، للقرضاوي: ص٢٢).

المبحث الخامس

مناهج العلماء في إثبات العقائد[1]

هل نؤمن بعذاب القبر ، وبالحوض والميزان وأمثال ذلك من الأمور الاعتقادية ؟ وما الذي يجعلنا نؤمن بذلك أو ننفيه ؟

١ ـ يرى علماء السلف الصالح أنَّ كلَّ ما أخبرنا الله به ، أو أخبرنا به رسوله ﷺ ، ووصل إلينا بطريق صحيح ، يجب الإيمان به وتصديقه. وهم لا يفرقون بين الخبر المتواتر وخبر الآحاد [2] ، إذا كان صحيحاً ، بل يثبتون العقائد بهما من غير تفريق .

ويستدلون على ذلك بالأدلة العامة التي تأمرنا بتصديق الله ورسوله فيما أخبرا به ، وطاعتهما فيما أمرا به مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3] وقوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[4] .

٢ـ واحتجت طائفة ممن ضعفت معرفتها بالصحيح والضعيف من أحاديث الرسول ﷺ بالأحاديث الموضوعة والضعيفة[5] في هذا الباب ومن أمثال هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

حديث « انتهيت إلى ربي ليلة أسري بي إلى السماء ، فرأيتُ ربي ، بيني وبينه حجاب بارزٌ ، فرأيت كل شيء منه ، حتى رأيت تاجاً مخوصاً من اللؤلؤ » . حديث موضوع [6] .

---

(١) انظر كتابنا (أصل الاعتقاد) فقد حققت فيه القول في هذه المسألة .

(٢) الحديث المتواتر ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب من مبدأ السند إلى منتهاه ، والآحاد ما نقص عن درجة التواتر .

(٣) سورة الأحزاب: ٣٦ .

(٤) سورة آل عمران: ٣٢.

(٥) الموضوع: المكذوب أي ما في سنده كذاب ، والضعيف ما لم تتوفر فيه شروط الصحيح.

(٦) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، للشوكاني: ٤٤١ .

حـــديث: (إنَّ الله يَجلسُ على القَنطرةِ الوسْطى بين الجنة والنار)[1]. ضعيف .

ويجب التحقق من الأحاديث قبل الاحتجاج بها سواء في العقيدة أو الأحكام ، وإلا فإنَّ النتيجة أنْ ننسب إلى دين الله ما ليس منه ، ونقرر أموراً اعتقادية باطلة.

ومثل الذين يثبتون العقائد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أولئك الذين يثبتونها بالمنامات والخرافات والأساطير.

٣ ـ ورفضت طائفة ثالثة الاحتجاج بالأدلة النقلية أي بالنصوص القرآنية والحديثية في إثبات العقائد ، وقد زعموا أنَّ « الأدلة النقلية لا تفيد اليقين ، ولا تحصل الإيمان المطلوب ، ولا تثبت بها عقيدة »[2]، وعللوا عدم إفادتها اليقين « بأنَّ الأدلة النقلية مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات »[3] .

وهذا قول متهافت لا يحتاج أن يتعب الناظر نفسه في الردِّ عليه ، إذ هو مخالف لإجماع الأمة ، وإذا كانت النصوص مجالاً واسعاً للاحتمال فكيف يكون كلام البشر ؟ وكيف لا تثبت العقائد بكلام الله ورسوله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

٤ ـ وذهب فريق رابع إلى رفض الاحتجاج بأحاديث الآحاد الصحيحة في باب العقائد، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النصُّ قطعي الدلالة[4]، وإذا لم يكن النص قطعي الدلالة فإنَّه لا يجوز الاحتجاج به عندهم.

---

(١) المصدر السابق: ٤٤٨.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ، لشلتوت: ص٥٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) يعنون بالقطعي الثبوت: القرآن والحديث المتواتر .
وبقطعي الدلالة: أن النص لا يحتمل معنى آخر ، أي لا يحتمل التاويل ، وقد ردوا لذلك النصوص الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في يوم القيامة ، أما الأحاديث فهي وإن كانت قطعية الدلالة فقد زعمو أنها أحاديث آحاد ، وأما نصوص القرآن فقالوا: غير قطعية الدلالة وأولوها تأويلاً آخر (انظر إنكار الشيخ شلتوت لرؤية العباد لربهم في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة: ص٥٧).

قال بذلك علماء الكلام قديماً ، وتابعهم بعض علماء الأصول ، وقد انتشر هذا القول في أيامنا ، حتى كاد ينسى القول الحقُّ ، ويستغرب من قائله. والعلماء قديماً وحديثاً كانوا ولا زالوا يبينون فساد هذا القول وخطورته، ويكشفون شبهة القائلين به .

توضيح شبهة هؤلاء: [1]

بينا أنَّ شبهة هؤلاء زعمهم أنَّ أدلة العقائد لا بدَّ أن تفيد اليقين ، وأحاديث الآحاد والنصوص القرآنية والأحاديث المتواترة إذا كانت دلالتهما غير قطعية لا تفيد اليقين ، بل هي ظنية ، والظنُّ لايجوز أن يحتج به في هذا المجال لقوله تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [2]، ولقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [3] ونحو ذلك من الآيات التي يذمُّ الله فيها المشركين لاتباعهم الظن.

واحتجاجهم بهذه الآيات وأمثالها مردود ، لأنَّ الظنَّ في الآيات ليس هو الظنّ الذي عنوه ، فإنّ النصوص التي ردُّوها ورفضوا الاحتجاج بها في مسائل العقائد تفيد الظن الراجح ،والظن الذي ذمه الله في قوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [4] هو الشك الذي هو الخرص والتخمين ، فقد جاء في « النهاية » و « اللسان » وغيرهما من كتب اللغة « الظن: الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به » .

هذا هو الظن الذي نعاه الله على المشركين ، ومما يؤيد ذلك قول الله فيهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [5] فجعل الظن هو الخرص الذي هو مجرد الحرز والتخمين ، إذ لو كان الظن المنعي به على المشركين هو الظن الغالب فإنه لا يجوز الأخذ به في الأحكام أيضاً؛ لأنَّ الله أنكر

---

(١) انظر « الحديث حجة بنفسه » و« وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد والأحكام» ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، وكتابنا: « أصل الاعقاد » .

(٢) سورة النجم: ٢٣.

(٣) سورة النجم: ٢٨.

(٤) سورة النجم: ٢٣ .

(٥) سورة الأنعام: ١١٦.

على المشركين الأخذ بالظنّ إنكاراً مطلقاً، ولم يخصه بالعقيدة دون الأحكام، ولأنَّ الله صرح في بعض الآيات أنَّ الظنَّ الذي أخذه على المشركين يشمل القول به في الأحكام أيضاً ، فاسمع إلى قوله تعالى الصريح في ذلك: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾[1] وهذه عقيدة، ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾[2] وهذا حكم، ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[3].

ثم إننا لا نسلم لهم القول إنَّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، بل قد تفيده، يقول صديق حسن خان: « والخلاف في إفادة خبر الآحاد الظنَّ أو العلم تقيد بما إذا لم يضم إليه ما يقويه ، أما إذا انضم إليه ما يقويه أو كان مشهوراً أو مستفيضاً فلا يجري فيه الخلاف المذكور .

ولا نزاع في أنَّ خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه فإنَّه يفيد العلم ، لأنَّ الاجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه ، وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ، فكانوا بين عامل به ومتأول له ، ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم » .

وقال العلامة السفاريني في « لوامع الأنوار البهية »:

« وخبر الآحاد إن كان مستفيضاً مشهوراً أفاد علماً نظرياً كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبي إسحاق الأسفرايني وابن فورك، وقيل يفيد القطع».

ثم ذكر قولاً إن خبر الآحاد غير المستفيض يفيد الظن لاحتمال السهو والخطأ ، و لكنَّه نقل عن الإمام الموفق (ابن قدامة) وابن حمدان والطوفي وجمع أنَّه يفيد العلم بالقرائن .

قال العلامة علاء الدين عليُّ بن سليمان المرداوي في شرح التحرير: «وهذا أظهر وأصح » وضبط القرائن يكون (بسكون النفس إلى الخبر

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٨ .
(٢) سورة الأنعام: ١٤٨ .
(٣) سورة الأنعام: ١٤٨ .

كسكونها إلى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى احتمال عنده ألبتة) .

ونصَّ أيضاً على أنَّ خبر الآحاد غير المستفيض يفيد العلم إذا نقله آحاد الأئمة المتفق عليهم وعلى إمامتهم وضبطهم .

ونقل عن القاضي أبي يعلى: « أنَّ هذا هو المذهب (مذهب الحنابلة)، وقال أبو الخطاب: هذا ظاهر كلام أصحابنا » .

وذكر السفاريني أن هذا القول اختاره ابن الزاعوني والإمام تقي الدين ابن تيمية ، ثم ذكر أن الذي عليه « الأصوليون من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أنَّ خبر الواحد إذا تلقته الأمَّة بالقبول تصديقاً وعملاً به يوجب العلم » .

ثم ذكر أنَّ المخالفين في ذلك من أتباع الأئمة فرقة قليلة تابعت علماء الكلام ، وذكر أنَّ ممن قال بإفادة خبر الآحاد العلم « أبا إسحق وأبا الطيب، وذكره عبدالوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسي وأمثاله من الحنفية » وقال: « وهو الذي عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الأشعرية وغيرهم» .

وقال ابن الصلاح: « ما أسنده البخاري ومسلم العلم اليقيني النظري واقع به ، خلافاً لقول من نفى ذلك محتجاً بأنَّه لا يفيد في أصله إلا الظن، وإنما تلقته الأمّة بالقبول، لأنه يجب عليهم العمل بالظن، قال: والظنُّ قد يخطئ».

قال ابن الصلاح: « وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قوياً ، ثم بان لي أنَّ المذهب الذي اخترناه أولاً هو الصحيح ، لأنَّ ظنَّ من هو معصوم من الخطأ لا يخطئ ، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ » . وابن الصلاح يعني أن الأمة أجمعت على صحة أحاديث البخاري ومسلم .

قال السفاريني: « ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أنَّ ما أسند في الصحيحين مقطوع بصحته ، قال: وأنا مع ابن الصلاح فيما نصَّ عليه وأرشد إليه » .

ثم ذكر أنَّ ابن كثير وقف على كلام لشيخه ابن تيمية مضمونه أنَّه نقل

القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات ، وبعد أن ذكر بعض أسمائهم قال: (أي ابن تيمية) « وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة » [1].

والصواب من القول أن أحاديث الآحاد الصحيحة تفيد اليقين إذا احتفت بها قرائن ودلائل كما نقلنا ذلك عن جملة من أهل العلم ، فالأحاديث التي وردت في كتب السنة وصححها أهل العلم ولم يطعن في صحتها واحد منهم تفيد اليقين لإجماع الأمة على صحتها ، ومن ذلك ما اتفق عليه صاحبا الصحيح أو ورد في واحد من الصحيحين ، ولم يطعن في صحته واحد من أهل العلم . ومن ذلك أن يكون الحديث مشهوراً أو مستفيضاً أو رواه الأئمة الكبار كمالك عن نافع عن ابن عمر.

خلاصة القول في المسألة: أن علماء أهل السنة يقبلون أحاديث الآحاد الصحيحة في العقائد والأحكام من غير تفريق في ذلك ، يدلك على هذا تخريج أئمة أهل السنة كمالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم للأحاديث المثبتة للعقائد في مدوناتهم، والمتواتر منها قليل، ولو لم يرتضوا الاستدلال بها لما أتعبوا أنفسهم في روايتها وضبطها وتدوينها ، ومن قال عنهم خلاف ذلك فإنه قد افترى عليهم، ولا دخل لكون الأحاديث الآحاد تفيد الظن الراجح أو اليقين في المسألة.

فالذين يقولون لا تفيد اليقين يرون الأخذ بها في العقائد إذا صحت ولا تلازم بين إفادتها الظن وردها في باب الاعتقاد .

فابن عبدالبر رحمه الله تعالى مع قوله إنّ أخبار الآحاد لا تفيد اليقين إلا أنه يرى أنه يجب الأخذ بها في العقائد كما يؤخذ بها في الأحكام ، وينسب ذلك إلى جماعة أهل السنة [2]

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ص١٧ ، وبهذه النقول الكثيرة التي أثبتناها يتبين لك ما في قول الشيخ شلتوت من التجني حيث يقول: « وهكذا نجد نصوص العلماء متكلمين واصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين ، فلا تثبت به العقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه . .» راجع الإسلام عقيدة وشريعة: ص: ٧٥.

(٢) راجع التمهيد ، لابن عبد البر: ١/ ٧ .

النصوص الدالة على الاحتجاج بخبر الآحاد

وقد وردت نصوص كثيرة تدل على وجوب الأخذ بحديث الآحاد والاحتجاج بها في إثبات العقائد ، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] فهذه الآية فيها حثٌّ للقبائل والعشائر وأهل النواحي والأقطار المختلفة من المؤمنين على أن ينفر من كلّ منهم طائفة ليتفقهوا في دينهم ، ثم يرجعوا إلى قومهم فينذروهم ، والطائفة في لغة العرب: تطلق على الواحد فما فوق ، والتفقه في الدين: يشمل العقائد والأحكام ، بل التفقه في العقائد أهم من التفقه في الأحكام ، ولذا أطلق الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على وريقات كتبها في العقائد: (الفقه الأكبر) ، ففي الآية دليل صريح على وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة ، وإلا لما جاز للطائفة أن تنذر قومها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾[2] وفي القراءة الأخرى (فتثبتوا) ، فإنهّا تدلُّ على أنَّ من لم يكن فاسقاً بأن كان عدلاً إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به ، وأنّه لا يجب التثبت، بل يؤخذ حالاً .

٣- وقد ورد في السنة ما يوضح قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾[3] ، فقد روى البخاري في صحيحه عن مالك بن الحويرث قال: (أتينا إلى النبي ﷺ ،ونحن شَبَبَة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله رحيماً رقيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا ، أو قد اشتقنا ، سألنا عمن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي)[4].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٢.
(٢) سورة الحجرات: ٦.
(٣) سورة التوبة: ١٢٢.
(٤) صحيح البخاري: ٢/ ١١٠ ، ورقمه: ٦٢٧ ، ورواه مسلم: ١/ ٤٦٥ ورقمه: ٦٧٤ ، واللفظ للبخاري .

فقد أمر كلَّ واحد من هؤلاء الشباب أن يعلم كلُّ واحد أهله ، والتعليم يعمُّ العقيدة ، بل هي أول ما يدخل في العموم ، فلو لم يكن خبر الآحاد مما تقوم به العقيدة لم يكن لهذا الأمر معنى .

٤ ـ وفي صحيحي البخاري ومسلم أيضاً: أنَّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: « ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام ، قال فأخذ بيد أبي عبيدة » فقال: (هذا أمينُ هذه الأمة) [1].

فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث الرسول ﷺ إليهم أبا عبيدة وحده ، وكذلك يقال في بعثه ﷺ في نوبات مختلفة أو إلى بلاد متفرقة غيره من الصحابة: كعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري ، وأحاديثهم في الصحيحين وفي غيرها .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا يعلِّمون العقائد في جملة ما يعلمون ، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لم يبعثهم رسول الله ﷺ أفراداً .

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه (الرسالة):

« وهو لا يبعث بأمره ، إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله ﷺ »[2] .

---

(١) صحيح مسلم: ٤/١٨٨٨ ، ورقمه: ٢٤١٩ ، والذي في البخاري أنه أرسله إلى أهل نجران ، صحيح البخاري.: ٧/ ٩٣ ، ورقمه: ٣٧٤٥ ، ١٣/ ٢٣٢ ، ورقمه: ٧٢٥٤ .
(٢) الرسالة ، للشافعي: ٤١٢ .

الرد على القائلين إن حديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة

وقد ردَّ العلماء على الذين لا يأخذون بأحاديث الآحاد في العقيدة من وجوه كثيرة منها:

١ـ القول إن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة قول مبتدع حادث لا أصل له في الشريعة ، وكلُّ ما كان كذلك فهو قول مردود .

٢ـ قولهم هذا في ذاته عقيدة (أي إنّ أحاديث الآحاد لا يحتج بها)، وعلى طريقتهم فإن هذه العقيدة تحتاج إلى دليل قطعي ينهى عن الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة ، ولا دليل على ذلك .

٣ـ لو وجد دليل قطعي يدل على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة لعلمها الصحابة وصرحوا بها ، وكذلك مَنْ بعدهم من السلف الصالح .

٤ـ هذا القول مخالف للمنهج العلمي الذي كان عليه الصحابة ، فقد كان الواحد منهم يقبل خبر من حدثه عن الرسول ﷺ ويجزم به ، ولا يرد قول أخيه بحجة أن الحديث الذي نقله إنما هو حديث آحاد.

٥ـ الأدلة الدالة على وجوب الأخذ بأدلة الكتاب والسنة تشمل العقائد والأحكام ، فتخصيص هذه الأدلة بالأحكام دون العقائد إذا كانت آحاداً تخصيص من غير مخصص .

٦ـ أمر الله ـ تعالى ـ رسوله بالبلاغ المبين ، ومعلوم أنَّ البلاغ المبين هو الذي تقوم به الحجة على المُبلغ ويحصل به العلم ، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم ، لم يقع به التبليغ فإنَّ الحجة إنَّما تقوم بما يحصل من العلم .

٧ـ يلزم من هذا القول إبطال الأخذ بالأحاديث الآحاد في العقيدة مطلقاً من بعد الصحابة الذين سمعوه منه ﷺ مباشرة ، لأنَّ الأحاديث لم تصل للناس قبل تدوينها إلا بطريق الآحاد ، والذين وصلهم الحديث بطريق

التواتر قليل ، بل أقل من القليل ، ثم إنَّ إخبار هؤلاء غيرهم أن الحديث الفلاني متواتر لا يفيد العلم، لأنَّ خبر هذا العالم خبر آحاد.

٨ ـ هذا القول يقتضي ترك العمل بأحاديث الآحاد التي فيها عقيدة وعمل ؛ لأنَّ عدم الأخذ بها في العقائد ردٌّ لها ، فكيف يؤخذ بها في الأحكام؟!

٩ـ لم يتفق الأصوليون على هذا القول ـ كما زعم الشيخ شلتوت ـ وقد نص الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم على أن خبر الواحد يفيد العلم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي والقاضي أبو يعلى من الحنابلة .

العقائد التي ثبتت بالأحاديث

وقبل أن ننهي القول في هذه المسألة نسوق إليك جملة من العقائد الثابتة بالأحاديث الصحيحة:

١ـ القول بنبوة آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يُنصَّ في القرآن على نبوتهم .

٢ـ أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين .

٣ـ شفاعته ﷺ العظمى في المحشر .

٤ـ شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته .

٥ـ معجزاته ﷺ كلها ما عدا القرآن ، ومنها معجزة انشقاق القمر ، فإنهَّا مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر .

٦ـ الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن ، والجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان ، وأن الحجر الأسود من الجنة .

٧ـ كثير من خصوصياته ﷺ التي جمعها السيوطي في كتاب (الخصائص الكبرى) مثل دخول الجنة ورؤية أهلها ، وما أعِدَّ للمتقين فيها وإسلام قرينه من الجنِّ .

٨ ـ القطع بأن العشرة المبشرين بالجنَّة من أهل الجنة .

٩ـ الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر .

١٠ـ الإيمان بعذاب القبر .

١١ـ الإيمان بضغطة القبر .

١٢ـ الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

١٣ـ الإيمان بالصراط .

١٤ـ الإيمان بحوضه ﷺ وأنَّ من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً .

١٥ـ دخول سبعين ألفاً من أمته ﷺ الجنة بغير حساب .

١٦ـ الإيمان بكل ما صحَّ في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر مما ليس في القرآن .

١٧ـ الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، وأنَّ الله تعالى كتب على كلِّ إنسان سعادته أو شقاوته ورزقه وأجله .

١٨ـ الإيمان بالقلم الذي كتب كلَّ شيء .

١٩ـ الإيمان بأنَّ أهل الكبائر لا يخلدون في النَّار .

٢٠ـ الإيمان بأنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنَّة .

٢١ـ الإيمان بأنَّ الله حرَّم على الأرض أنْ تأكل أجساد الأنبياء .

٢٢ـ الإيمان بأنَّ لله ملائكة سياحين يبلغون النبي ﷺ سلام أمته .

٢٣ـ الإيمان بمجموع أشراط الساعة كخروج المهدي ، ونزول عيسى وخروج الدجال ... وغير ذلك .

وليست أدلة هذه العقائد جميعاً أحاديث آحاد ، بل منها ما دليله أحاديث متواترة ، ولكن عدم علم هؤلاء بالسنة المتواترة منها والآحاد جعلهم يردّونها، أو يردون كثيراً منها ، وإلا فإنَّ أحاديث خروج الدجال ، وخروج المهدي ، ونزول عيسى بن مريم أحاديث متواترة كما صرح بذلك علماء الحديث .

والأدهى من ذلك أن تُردَّ العقائد التي وردت في الأحاديث المتواترة ، بل وردت في القرآن بزعم أنَّ دلالة هذه النصوص غير قطعية كما سبق، وقد ذكرنا قول الشيخ شلتوت ، ولذا لم يثبتوا رؤية العباد لربهم في يوم القيامة مع تصريح القرآن بإثباتها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1] ، وقد تواترت الأحاديث بإثباتها.

وقد حمل أبو الحسن الأشعري على المعتزلة لردهم النصوص من الكتاب والسنة تقليداً لرؤسائهم وأهل الرأي فيهم ، قال رحمه الله تعالى: « أما بعد فإن الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم ، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين ، وخالفوا روايات الصحابة عليهم السلام عن نبي الله صلوات الله عليه في رؤية الله بالأبصار ، وقد جاءت في ذلك روايات من الجهات المختلفة ، وتواترت بها الآثار ، وتتابعت بها الأخبار ، وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين ، ودفعوا الروايات في ذلك عن المتقدمين ، وجحدوا عذاب القبر ، وأن الكفار في قبورهم يعذبون » [2] .

وقال أبو الحسن في موضع آخر: « وأنكرت المعتزلة الحوض ، وأنكرت المعتزلة عذاب القبر » [3] .

وقال أبو الحسن في مقالات الإسلاميين: « اختلفوا في عذاب القبر ،

---

(١) سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) الإبانة عن أصول الديانة : ص ٦ .
(٣) المصدر السابق: ص ٧٥ .

فمنهم من نفاه ومنهم من أثبته وهم المعتزلة والخوارج »[1].

وقال في مقالاته: « اختلفوا في شفاعة رسول الله ﷺ هل هي لأهل الكبائر ، فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله »[2].

وذكر أيضاً في مواضع من مقالاته أن المعتزلة أنكروا العين واليد لله ، كما أنكروا رؤيته بالأبصار ومجيئه يوم القيامة ونزوله إلى السماء الدنيا ، وجزموا بتخليد الفساق في النار ، وغير ذلك مما خالفوا فيه الأحاديث الصحيحة والمتواترة بل نصوص القرآن[3].

فمن نفى هذه العقائد التي صحت بها الأحاديث ، فإنه سائر على درب المعتزلة ، لا على طريق أهل السنة .

وقد رأيت من السابقين واللاحقين من جزم بأن جميع أشراط الساعة أحاديث آحاد ، وردها بسبب ذلك ، وما ظنه منها متواترا لاحقه بالتأويل والتحريف .

حكم من أنكر ما ثبت بخبر الآحاد:

نقل السفاريني القول بكفر من أنكر خبر الآحاد عن إسحاق بن راهوية ، والأصح أنَّه لا يكفر ، ويبدو أن الذي قال بكفره نظر إلى الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول ، وأجمعت على صحتها .

وإننا ، وإن لم نقل بكفره ، نقول: لقد سلك هذا الذي ردَّ أحاديث الرسول ﷺ الصحاح في الاحتجاج بها في العقائد مسلكاً بين الخطأ ، ويخشى عليه أن يزيغ بسبب رده لهذه الأحاديث وأن يبتليه الله بالمضلات ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

---

(١) مقالات الإسلاميين : ص ٣٤٠ .
(٢) مقالات الإسلاميين : ص ٣٤٠ .
(٣) راجع مقالات الإسلاميين : ص: ١٥٧ ، ٢١٦ ، ١٩٥، ٤٧٤ .
(٤) سورة النور: ٦٣ .

هذا هو المنهج

إنَّنا نلتزم في هذه الدراسة التي نقدمها بالكتاب والسنة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نعرض العقيدة وفق المنهج الذي عرضه الكتاب والسنة ولا نتجاوز هذا النهج، فهو الطريق الذي أحيا قلوب الأوائل من هذه الأمة.

وهو السبيل الوحيد الذي سيصلح بقية الأمة ، وصدق الإمام مالك ـ إمام المدينة المنورة وعالمها ـ إذ يقول: « لن يَصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

وقد قدَّمنا تميز القرآن في نهجه عن الفلسفة في إقرار الدِّين والاعتقاد، وهذا التميز يلزمنا بالأخذ به دون سواه .

شبهة تحتاج إلى إيضاح: كيف نخاطب بالقرآن من لا يؤمن به

يقول بعض الذين عندهم حظ من الدِّين: كيف نعرض القرآن على من لا يؤمن بالله ؟ يجب أن نخاطب النَّاس اليوم بمنطق العلم المادي الحديث والأدلة العقلية ، فإذا اقتنعوا بالإسلام خاطبناهم بالقرآن .

ونحن نقول لهؤلاء: بالله عليكم كيف أمر الله رسوله أن ينذر بالقرآن الكفار الذين يكذِّبون بالله وبالقرآن وبالرسول ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[1] كيف أمره أن يتلو عليهم هذا القرآن ؟ ألم يكن يقرؤه على المعاندين المكذبين فيهزّ نفوسهم ، ويزلزل قلوبهم ؟

ماذا فعلت آيات القرآن بأميَّة بن خلف ، والوليد بن عتبة ، . . . وغيرهم على غلظ كفرهم وتمكن عداوتهم ؟

قد يقال: فالقرآن اليوم يتلى في كل مكان حتى من إذاعة (لندن ـ وواشنطن) ومع ذلك فإنَّ أبناء الإسلام الذين يقرءون القرآن لا يؤمنون بما جاء به .

والجواب على هؤلاء أنَّ العربي قديماً كان يسمع الآيات تتلى عليه ،

---

(١) سورة الأنعام: ١٩.

فتنسل إلى أعماق نفسه ، لأنّه عربيّ يفقه معاني الآيات ومراميها ، فلا حجاب بينه وبينها .

أمّا اليوم فتقوم بين النّاس والقرآن حواجز وحجب ، بعضها يعود إلى اللغة ، وبعضها إلى شبهات استقرت في الأذهان ، وأصبحت عند النّاس مسلمات .

ولذلك فإنّ مهمة حامل القرآن اليوم أنْ يقوم بترجمة القرآن إلى اللغة التي يفقهها النّاس ، عليه أن يصل النّاس بالقرآن ، ويصل القرآن بالنّاس، بأن يبين لهم معانيه ومراميه ، ويجدد معاني هذا الكتاب في النفوس ، فتعود مرة أخرى إلى تذوقه واستشعاره . . . ، وتصل معانيه إلى المكذّبين والمنكرين بهذه الطريقة ، فتتحقق الدعوة التي تقوم بها الحجة على كلّ إنسان .

وقد سبق أن بيّنا أنّ القرآن يحتوي على الأدلة التي تناقش العقول ، وتروي ظمأ القلوب ، وليس هو مجرد أخبار فقط .

دعوة مشبوهة: التقارب بين الأديان

هذا هو السبيل: أن نتبين النهج الذي جاءنا الله به لإقرار الإيمان في النفوس ، ونلتزمه في ذوات أنفسنا ، وفي دعوة الناس ، وفي تربيتهم وفِقْهُ.

ويحاول أعداء الله ، والمخدوعون من أبناء هذه الأمة ، أن يشوهوا هذا السبيل ، وذلك بالدعوة إلى التقارب بين الأديان ، فقد أقيمت مؤتمرات وندوات من أجل ذلك .

وقد أخطأ الذين أمُّوا هذه المؤتمرات والندوات من المسلمين خطأ كبيراً حين رضوا بأن يجعلوا الإسلام موضوعاً للبحث كاليهودية والنصرانية على حدٍّ سواء.

قد نجد لهؤلاء العذر لو ذهبوا إلى هناك يقولون للآخرين كما قال القرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] كان عليهم أن يبينوا باطل هؤلاء بالتي هي أحسن، ويعرضوا عليهم الدّين الحقَّ، ويقيموا عليهم الحجة، لا أن يخطبوا ودَّهم، ويجاملوهم في باطلوهم.

ويخطئ الذين يخلطون الإسلام بغيره من الأديان والمذاهب والفلسفات، يزعمون أنهم يوفّقون بين نصوص القرآن وكلام أولئك الأقوام، ليصلوا إلى مرحلة وسط يلتقي فيها الإسلام بغيره، وكذبوا في زعمهم، وضلوا في نهجهم، فالإسلام دين الله يهيمن على الحياة والأحياء، ولا يحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين غيره، فغيره فيه الباطل والصالح، والإسلام صلاح كله، ومهمتنا أن نُبقي كتاب ربّنا ودينه متميزين ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[2] حتى يفيء إليه النّاس فيجدوه صافياً غير مخلوط.

وقد ذمَّ الله هذا الصنف من النّاس الذين يريدون مزج الإسلام بغيره والالتقاء في منتصف الطريق بزعم التوفيق، وأخبر أنَّ هذا فعل المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ٦٤ .
(٢) سورة البقرة: ٢٥٦ .
(٣) سورة النساء: ٦١- ٦٢ .

الإيمان بالله

تمهيد: أهمية هذا الأصل:

الأصل الأول من الأصول الاعتقادية هو الإيمان بالله ، وهذا الأصل هو أهمُّ الأصول الاعتقادية والعملية ، وعليه مدار الإسلام ، وهو لبُّ القرآن ، ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ القرآن كلَّه حديث عن هذا الإيمان ؛ لأنَّ القرآن إمَّا حديث مباشر عن الله تعالى: ذاته وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، كآية الكرسي ، وسورة الإخلاص .

وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وترك ما يُعبد من دونه من آلهة باطلة ، وهذا كله تعريف بالله ، ودعوة للقيام بحقِّه ، ونهيٌ عن صرف ذلك لغيره .

وإما أمر بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

وإمَّا إخبار عن أهل الإيمان وما فعل بهم في الدُنيا من الكرامة ، وما يثيبهم به في الآخرة ، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله .

وإمَّا إخبار عن الكافرين ، وما فعل الله بهم في الدُّنيا من النكال ، وما سيفعل بهم في الآخرة في دار العذاب، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله ، يوضح هذا أنَّنا نجد أنَّ ذكر الله قد تكَّرر في القرآن باسم من أسمائه ، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة أي في الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط .

إننا نستطيع أن نقول: إنَّ الإيمان بالله بالنسبة لبقية الأصول والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع ، فهو أصل الأصول ، وقاعدة الدِّين ، وكلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيماً كانَ حظه في الإسلام كبيراً .

مسائل الإيمان بالله

مسائل هذا الباب التي لا بدَّ للباحث من عرضها وتمحيصها هي:

أولاً: أدلة وجود الله ـ تعالى ـ وردّ الشبهات التي تثار حول هذا الموضوع .

ثانياً: التعريف بالله ـ سبحانه ـ وهذا يتمُّ في القرآن من خلال طريقين:

١ـ بيان ما في المخلوقات من إبداع وإعـجاز تدل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه .

٢ـ دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً: ذاته، وأسمائه، وصفاته ، وأفعاله .

ثالثا: توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، ونبذ ما يعبد من دونه.

رابعاً: نظرة في تاريخ العقيدة الإلهية ، وتحقيق القول في ذلك .